الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي
ودوره في العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط و السودان الغربي

د.بوحسون عبد القادر
أستاذ محاضر أ / جامعة سعيدة
Bouhassoun.aek20@gmail.com

الملخص:

لقد ارتبط المغرب الأوسط بعلاقات متميزة بمختلف الإمارات الإسلامية ببلاد السودان الغربي والتي شملت مختلف المجالات، وكان لعلماء المغرب الأوسط الدور الأوفى في تلك العلاقات ولا سيما العلاقات الثقافية، ومن أولئك العلماء ممن تركوا بصمة واضحة ببلاد السودان الغربي نذكر الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي عاش في القرن التاسع الهجري الخامس عشر ميلادي,

الكلمات المفتاحية:
العلاقات الثقافية، المغرب الأوسط، السودان الغربي، المغيلي

مقدمة:

لقد ارتبط المغرب الأوسط في العصر الوسيط بعلاقات متميزة مع عديد الدول والأقاليم سواء الإسلامية أو غير الإسلامية، ومنها بلاد السودان الغربي التي قامت بها إمارات إسلامية عديدة، وكان لعلماء المغرب الأوسط دور في ترسيخ وتمتين تلك العلاقات، ولعل من أبرز العلماء الذين تركوا بصمة واضحة في تلك العلاقات نجد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني . فمن يكون الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي؟وما هي أبرز الإمارات والممالك الإسلامية ببلاد السودان الغربي؟ وما طبيعة علاقاتها ببلاد المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة؟وما هو دور المغيلي في تلك العلاقات لاسيما الثقافية منها؟

نسبه ونشأته:

لقد عاصر المغيلي الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط في مرحلتها الأخيرة وهو يعد من بين أكابر العلماء الذين عرفهم المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري حيث كان عالما في الفقه والتفسير والحديث والمنطق[1] ، ولد بقبيلة مغيلة البربرية قرب تيهرت ونحن نجهل سنة ولادته أما وفاته فكانت حوالي 909هـ[2] ، نشأ المغيلي بمغيلة وحفظ القرأن بها وبعدها ارتحل إلى بجاية أين عكف على دراسة مختلف العلوم النقلية والعقلية على مشاهير العلماء بها أمثال الشيخ يحي بن يدير والشيخ أبو العباس الوغليسي وغيرهما (لا تعطينا المصادر التاريخية معلومات وافية عن حياته الأولى)،ثم ارتحل بعدها إلى تلمسان عاصمة المغرب الأوسط آنذاك ، وهنالك زاول مهنة التدريس بعد أن توسعت مداركه ومعارفه فتتلمذ على يده عدد كبير من الطلبة ممن أصبحوا علماء فيما بعد أمثال: الشيخ أحمد آيد، العاقب الأصنامي، محمد بن عبد الجبار الفيجيجي وغيرهم[3].

وخلال مكوثه بتلمسان لاحظ التعفن والانحلال وسط المجتمع الزياني وتحكم اليهود في أمور كثيرة فقرر المغادرة وقصد واحة توات سنة 882هـ/1279م واستقر بها في واحة تمنطيط ثم انتقل إلى واحة بوعلي الهني وأسس زاويته الدينية، والتي لا تزال تحمل اسمه لليوم[4].

و بتوات لاحظ أيضا سيطرة اليهود على حركة القوافل التجارية ولهم نفوذ وحرية واسعة فقرر محاربتهم فيما عرف بقضية يهود توات وهي المشكلة التي أحدثت انشقاقا بين علماء الفترة فهناك من ناصر المغيلي وهناك من عارضه خاصة علماء فاس، فاضطر للذهاب إلى فاس لشرح موقفه من قضية اليهود بتوات ولكنه غادرها مغاضبا بعد أن اتهم بالطموح للسياسة والرياسة، وبعد عودته من فاس غادر واحة توات وقصد بلاد السودان الغربي[5].

([1]) ابن مريم الشريف، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص 253.

([2]) عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 153.

([3]) يحي بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب، الجزائر، 2003، ص 235.

([4]) نفسه، ص 236.

([5]) الحسين يختار، أضواء على حياة الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي، مجلة رسالة المسجد، السنة الثالثة، العدد الثاني، الجزائر، 2005، 2 86.

وقد كان المغيلي من مثقفي عصره النشيطين له شخصية قوية استطاع بواسطتها التأثير على الناس أينما حل وارتحل، كما يعد من القلائل الذين عُرفوا بالصراحة تجاه الحكام [1].

كما ترك لنا مؤلفات عديدة نذكر منها:

1. . البدر المنير في علم التفسير
2. . شرح مختصر خليل
3. . شرح الجمل للخونجي
4. . منهج الوهاب
5. . مقدمة في العربية
6. كتاب الفتح المبين
7. . تفسير الفاتحة
8. . مفتاح النظر في علم الحديث
9. . شرح بيوع الآجال من كتاب ابن الحاجب الفقهي [2]

ولا تزال الكثير من كتبه مخطوطة ومحفوظة لدى أتباع زاويته ببلاد السودان الغربي، كما ترك المغيلي وراءه تلامذة كثر خاصة بغرب إفريقيا، والتي لا يزال أهلها يذكرونه إلى اليوم بالخير ويعترفون بفضله على مجتمعاتهم [3].

لمحة عن الأوضاع العامة ببلاد السودان الغربي:

لقد قامت بغرب إفريقيا أو السودان الغربي عدة دول أو ممالك إسلامية أهمها مملكة غانة، مالي، صنغاي، مملكة الهوسة وهي جميعها متقاربة في التقاليد والعادات والمعتقدات، كما أننا لا يمكننا رسم حدود ثابتة لكونها متداخلة فيما بينها[4].

وقد دخل الإسلام إلى هذه المناطق عن طريق العلماء والدعاة والتجار، ومن بين العلماء الذين كان لهم أثر في تعميق الإسلام بالمنطقة: يحي بن عبد الله والشيخ فتح الله بوراس والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي استقر بالمنطقة وكان له دور كبير بها[5]، وقبل التطرق لدوره لا بد من التعريف بأهم الممالك والدول التي قامت بالسودان الغربي:

([1]) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص 154.

([2]) محمد بن عبد الكريم المغيلي، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص ص 21 22.

([3]) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 252.

([4]) علي أيوب ناجي، لمحة عن الإسلام بنيجيريا بين الأمس واليوم، دار الكتاب الحديث، الكويت، (دت)، ص 58.

([5]) علي أيوب ناجي، المرجع السابق، ص ص 61.60.

1.مملكة غانة:

إن موقع مملكة غانا لا ينطبق مع موقع دولة غانا الحالية، وإنما يتوغل في الشمال، حيث يشمل جنوب موريتانيا وشرقي السنغال وجزء من مالي، وكانت عاصمتها كمبي صالح واستمرت من القرن 3 إلى 13 م ، وقد وصفها الجغرافي الإدريسي بأنها أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها [1].

وقد دخل الإسلام إلى هذه المملكة عن طريق التجار المسلمين الذين أنشؤوا المدن والمساجد والمدارس، فكان الإسلام سببا في ظهور وازدهار هذه المملكة في العصر الوسيط وفرض سيطرتها على غرب الصحراء ومعابر التجارة إلى أن سقطت بيد المرابطين ابتداء من 1054م [2].

2.مملكة مالي:

ظهرت ونشأت هذه المملكة عقب سقوط مملكة غانة في القرن 13م وشملت مالي الحالية وشرق السنغال وشمال غينيا وشمال كل من بوركينافاسو والداهومي (البينين)، وانتشر الإسلام بها على نطاق واسع لاسيما المذهب المالكي [3].

3.دولة صنغاي:

تعد من أبرز وأهم الدول التي قامت ببلاد السودان الغربي في العصر الوسيط، كان موطنها بالنيجر الأوسط وعاصمتها الأولى كوكيا ثم غاو حكمتها أسرة زا ثم أسرة سني ثم جاءت فترة الأسقيين وسقطت على يد المنصور الذهبي [4].

4.مملكة الكانم بورنو:

قامت في المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد ونهر الكانوري، والتي تشملها اليوم دولة تشاد وقسم من شمال نيجيريا، كانت عاصمتها كوكو، وهي تتكون من مجموعتين رئيسيتين: مجموعة الكانم وهم من هجرات قبائل البربر(الملثمين) والكانوري وهم من قبيلة بلالة وخزام العربيتين، واستمرت هذه المملكة إلى غاية نهاية القرن 19 حين احتلها الفرنسيون [5].

هذه لمحة عن أهم الممالك والدول التي قامت ببلاد السودان الغربي والتي عرفت بنشاطها التجاري الكبير وكذلك ازدهار الثقافة والفكر بعواصمها بفضل هجرة العلماء واستقرارهم بها.

([1]) اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 281.

([2]) مبخوت بودواية، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد بني زيان، دكتوراه في التاريخ، جامعة تلمسان، 2005، ص ص 40 ن 41.

([3]) المرجع نفسه، ص 308.

([4]) نفسه، ص ص 53، 56، زبادية، المرجع السابق، ص 21.

([5]) زبادية، المرجع السابق، ص 25، علي أيوب ناجي، المرجع السابق، ص 18.

دور المغيلي بالسودان الغربي:

بعد الضجة التي أثارتها قضية يهود توات انتقل المغيلي لفاس لشرح موقفه لفقهائها، وبعد عودته من فاس اتجه جنوب نحو بلاد الأهير شمال نيجيريا ودخل بلدة تكدة واجتمع بسلطانها وقرأ عليه أهلها ثم دخل بعدها بلاد وكشن واجتمع بسلطان كانو محمد زنقا بن يعقوب وكتب له رسالة في أمور السلطة عنوانها: فيما يجوز للحاكم وكذا ما يجب على الامير من حسن النية للإمارة[1]، وبعدها ارتحل إلى بلاد التكرور ونزل مدينة غاو عاصمة مملكة صنغاي واجتمع بسلطانها الحاج محمد الكبير الأسقيا محمد الأول الذي وصل إلى الحكم سنة 1493 وعرف بإصلاحاته الكبيرة وسعيه لتصحيح فهم الناس للإسلام فاتصل بالمغيلي واستفتاه في عدة مسائل حول الحكم والقضاء وبعض العادات والتقاليد وأمور أخرى، كما تعرف المغيلي هناك على الرحالة المصري جلال الدين السيوطي ووقع جدال بينهما حول علم المنطق الذي ينكره السيوطي ويقره المغيلي[2].

وجادله المغيلي بقصيدة جاء فيها:

سمعت بأمر ما سمعت بمثله وكل حديث حكمه حكم أصله

أيمكن للمرء في العلم حجة وينهى عن الفرقان في بعض قوله

هل المنطق المعني إلا عبارة عن الحق او تحقيقه حين جهله

ورد عليه السيوطي كذلك بأبيات شعرية منها:

عجبت لنظم ما سمعت بمثله أتاني عن حبر أقر بفضله

تعجب مني حين ألفت مبدعا كتابا جموعا فيه جم بنقله

أقرر النهي عن علم منطق وما قاله من قال عن ذم شكله [3]

وعموما يمكن القول أن المغيلي كان دليلا ومظهرا ان صح التعبير على الروابط والعلاقات الثقافية بين المغرب الإسلامي بصفة عامة وبلاد السودان الغربي، وإن هذه الروابط لا تعود لعصر المغيلي بل هي قديمة ظهرت بشكل واضح بعد دخول الإسلام إلى بلاد المغرب وبدأ في الانتشار جنوبا عن طريق عقبة بن نافع ومن جاء بعده من الولاة[4]، وكذلك دور التجار وعرب بنو هلال والمرابطين والموحدين والطرق والزوايا في نشر الإسلام جنوبا.

وقد أحدث الإسلام تغييرا واضحا في حياة السودانيين رغم أن إسلام الكثير منهم كان سطحيا ويشوبه الكثير من الخرافات، وهنا يظهر دور العلماء أمثال المغيلي الذين عملوا على تصحيح المفاهيم الخاطئة فكان لهم الدور الكبير في تمتين الروابط الثقافية بين القطرين، دون أن ننسى الدور الكبير الذي قام به بعض السلاطين من

([1]) ابن مريم، المصدر السابق، ص 254، مبخوت، المرجع السابق، ص 250.

([2]) زبادية، المرجع السابق، 159، ابن مريم، المصدر نفسه، ص 256.

([3]) ابن مريم المصدر السابق، ص 256.

([4]) إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص ص 215 . 217.

بلاد السودان الذين عملوا على جلب العلماء إلى بلدانهم وإرسال البعثات الطلابية إلى بلاد المغرب مثل السلطان منسا موسى سلطان مالي[1] .

بيد أن عهد الأسقيين بمملكة صنغاي يعد من أزهى العهود الذي عرفا فيه العلاقات الثقافية أوج ازدهارها حيث توافدت على المملكة وفود العلماء والطلاب خاصة في عهد الحاد محمد وابنه داود، كما كان للمدن الإسلامية بالسودان مثل مدينة جني، غاو، تمبكتو وغيرها من المدن التي كانت بمثابة المراكز التي أدت دورا في تلك العلاقات إذ كانت مقصدا للعلماء والطلاب على حد السواء.

خاتمة:

وما يمكن قوله في الأخير ان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي كان من العلماء الكبار الذين عرفهم المغرب الأوسط والإسلامي بصفة خاصة والعالم الإسلامي بصفة عامة، وذلك لعلمه الغزير ونشاطه التعليمي الكثيف ودوره الإصلاحي الذي عم مناطق واسعة، وكان من القلائل الذين نادوا بإصلاح الأوضاع القائمة وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام لاسيما ببلاد السودان الغربي حيث عمل جاهدا على نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية بتلك المنطقة وربط بلاد السودان ثقافيا ببلاد المغرب، كما لا ننسى الدور الكبير الذي قام به تلامذته من بعده في مواصلة ما بدأه شيخهم المغيلي من إصلاح ونشر للعلم والمعرفة أمثال محمد بن عبد الجبار الفيجيجي و إبراهيم بن عبد الجبار الفيجيجي والعاقب بن عبد الله الأنصمي و عمر الشيخ بن أحمد البكاي وغيرهم.

(1) زبادية، المرجع السابق، ص 350، مبخوت، المرجع السابق، ص 189.

المصادر والمراجع:

1. . ابن مريم الشريف، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986
2. . محمد بن عبد الكريم المغيلي، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968
3. . عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987
4. . يحي بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب، الجزائر، 2003، ص 235.
5. . علي أيوب ناجي، لمحة عن الإسلام بنيجيريا بين الأمس واليوم، دار الكتاب الحديث، الكويت، (دت).
6. . بوعياد محمود، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن 9هـ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
7. . اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983
8. . مبخوت بودواية، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد بني زيان، دكتوراه في التاريخ، جامعة تلمسان، 2005.
9. . محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.
10. . البكري بكري، تمنطيط رمز تاريخ وعنوان حضارة، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد الأول، السنة الأولى، وهران، 1993.
11. . الحسين يختار، أضواء على حياة الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي، مجلة رسالة المسجد، السنة الثالثة، العدد الثاني، الجزائر، 2005،